صورة المرأة المُستَلَبة

في أدب سناء الشعلان السردي

م.م. علي خالد حامد

الملخص

يسعى هذا البحث إلى إلقاء الضوء على جانب مهم من واقع المرأة العربية ، وهو الجانب المؤلم في حياتها ، والكشف عن صورتها ضمن مفاهيم الاستلاب ، وبيان أبرز العوامل التي أسهمت في التضييق على المرأة ، والتعدي على حقوقها ، والإهمال المقصود لمشاعرها وآمالها وتطلعاتها . وما نجم عن ذلك من مواقف استلابية ، ضاعفت من معاناتها ، وجعلتها تعيش في أجواء الحزن والألم واليأس . وستتم معالجة ذلك عبر محورين هما : (صورة المرأة المستلبة بفعل القمع الاجتماعي) ، و(صورة المرأة المستلبة بفعل القمع الصهيوني) .

Abstract :

This research seeks to shed light on an important aspect of the reality of Iraqi women, which is the painful aspect of her life, and to reveal her image within the concepts of alienation, and to clarify the most prominent factors that contributed to the restrictions on women, transgression their rights, and actions and behaviors intended to touch her feelings, hopes, ambitions and aspirations, and what resulted from these attitudes, which have multiplied their suffering and made them live in an atmosphere of sadness, pain and despair, and this will be discussed through two aspects: (the image of women dispossessed by social repression), (and the image of women dispossessed by the act of Zionist repression).

إضاءة / مفهوم الاستلاب

يحيل الجذر اللغوي للاستلاب في معاجم اللغة العربية إلى الفعل (سلب) ، الذي يشير في بعض معانيه إلى الانتزاع بوسائل الإكراه . وقد ذكر ابن منظور ذلك في معجمه بقوله : ((سَلَبَ : سَلبَهُ الشيء يسلبُه سلباً ، والاستلاب : الاختلاس ، والسَلَب ما يُسلَب : والجمع أسلاب . ورَجلٌ سَليب : مُستلَب العقل ، وشَجرةٌ سَليب : سُلبَت ورقها وأغصانها ، والنخلُ سُلُب أي لا حَملَ عليها))[1].

أمَّا في الاصطلاح ، فيعني الاستلاب ((أن تُسلَب من الانسان قَسراً حريته أو استقلاله أو رأيه أو أرادته أو معتقده أو عمله ، ويشعر بسبب ذلك بالعزلة والقهر والانكفاء على الذات ، تحت تأثير ضغوط سياسية أو اجتماعية أو دينية أو اقتصادية أو نفسية أو ثقافية تُفرَض عليه من المجتمع أو السلطة أو جماعة مستبدة ، فيفقد الانسان انتماءه إلى نفسهِ ومجتمعهِ ووطنهِ ، ويتحول إلى شخص هامشي ليس له صوت أو تأثير داخل مجتمعه ، ويفقد التواصل والتضامن مع الآخرين ، والإحساس بالواقع أو التعايش معه))[2]. والاستلاب يُولّد حالة من العجز والضعف في بعض الأحيان ، تجعل الشخص المسُتَلب منكفئاً على ذاتهِ ، وعاجزاً عن المواجهة ، ومجاراة الأحداث . إذ يحوي الاستلاب ((ظلالاً كثيرة منها السلب والتدمير كنقيض للإيجاب والبناء ، ومنها السلب بمعنى الانتزاع والخلع أو الانخلاع ، والسلبية بمعنى النكوص والانطواء وما شاكل))[3]. ويعكس الاستلاب حالة الاختلاف والعداء بين الذات والآخر ، فيعكس جدلية النزاع والصراع بينهما ، منذ أقدم الأزمان ، وإلى يومنا هذا . إذ ((تمثِّل ظاهرة الاستلاب إشكالية وجودية معقدة رافقت وجود الإنسان منذ نشأته حتى ارتقائه في سلم الحضارة ، وهي تنطوي على صراع وجودي بين نزعات بدائية "الميل إلى القوة ، والامتلاك" ، ونزعات عقلية متسامية تعمل من أجل تحقيق كينونتها . وظاهرة الاستلاب تحيل إلى معادلة مختلة بين ذوات مُهيمنة ، وأخرى مُستسلمة فاقدة لفاعليتها المؤثرة))[4].

ولعلنا لا نجانب الصواب كثيراً ، إذا قلنا إنَّ ظاهرة الاستلاب قد رافقت المرأة منذ القدم ، وإلى يومنا هذا ، بفعل عوامل متعددة (اجتماعية وسياسية واقتصادية ثقافية) ، فهي الطرف الأضعف في المعادلة الاجتماعية ، فيُنظَر إليها على أنَّها كائن هامشي تابع للرجل ، والمرأة المستلبة تكون منتزعة الإرادة والهوية ، تعاني من قهر المجتمع واضطهاده لها ، لا تتصرف بناء على رغبتها الذاتية ، بل على وفق ما يملي عليها الآخرون ، إذ ليس بمقدورها اتخاذ القرار المناسب بمفردها ، وتبقى تنتظر من يقرر عنها ، وحتى لو قررت فليس باستطاعتها التنفيذ ؛ لأنَّ مشاعر الخوف والقلق والتردد تسيطر عليها ، لذلك فهي ليست اجتماعية ، وتحب دائماً الانزواء والتقوقع على ذاتها ، لا تقدم على الاعتراض والرفض ، ولا تقوى على المواجهة ، لذا تعيش في أجواء الإحباط واليأس ، وتكون منقادة لرأي المجموع ، دون الاستناد إلى العقل ، فتميل إلى الانهزام تجاه الطغيان والقهر ، الذي تمثله السلطة بأنواعها المختلفة[5]. وقد واجهت المرأة عبر التاريخ صنوفاً مختلفة من التهميش والإقصاء ، فتعرَّضت للتغييب المقصود ، ونالها العنف بشتى أنواعه في مواقفٍ كثيرة ، لا سيّما العنف الأسري الذي يحدث ؛ بسبب تسلط الرجل ، وعدم العناية بالزوجة أو الأخت أو البنت تحت ذرائع مختلفة ، تغذيها مرجعيات ثقافية موروثة ، وفَّرت مساحة كبيرة للهيمنة الذكورية ، ومكَّنتها من التمدد على حساب المرأة ، لذلك ((فإنَّ العنف ضد المرأة سلوك ينتقل عبر الأعراف الاجتماعية والمعتقدات والإيديولوجيات ، التي تعمل على المصادقة عليه ، وقبوله ضمن دائرة ثقافة ما))[6]. فضلاً عن العنف السلطوي المتجسَّد في ممارسات السلطة الحاكمة تجاه أبناء الشعب ، التي لا تستثني النساء من أفعالها التعسفية . إلا أنَّ أشد الأشياء ضرراً على المرأة ، ما يقوم به المحتل الصهيوني من ممارسات قمعية بحق أبناء الشعب الفلسطيني ، والمرأة الفلسطينية لم تكن بعيدة عن تأثير العنف الصهيوني ، فقد تعرَّضت لأنواع مختلفة من القمع والاضطهاد ومصادرة الحقوق ، وقد شكَّل ذلك باعثاً من بواعث حزنها وآلامها ، وشعورها بالاستلاب . لذلك سنقوم بدراسة كل هذه الأشياء عبر محورين ، هما : (صورة المرأة المستلبة بفعل القمع الاجتماعي) ، و(صورة المرأة المستلبة بفعل القمع الصهيوني) .

أولاً / صورة المرأة المستلبة بفعل القمع الاجتماعي

يولِّد القمع الاجتماعي الذي يقع على بعض الأشخاص حالة من الاستلاب الشديد ، الذي يعد من أخطر أنماطه ، وأكثرها تأثيراً وضرراً على المجتمع ، إذ لا يقتصر على سلب حقوق الفرد ، وإنّما يتعداه إلى سلبِ كيانِه ، وهدرِ طاقاتهِ . وربَّما يؤدي إلى طمس شخصية الإنسان ، وسحق لإنسانيته ، وتدميره بمختلف الوسائل المتاحة ، من أجل إضعافه والسيطرة عليه . فضلاً عن ذلك فإنَّ الاستلاب الاجتماعي يمثل حالة من فقدان الفرد لإيمانه بقدراته ، ووصوله إلى قناعةٍ عميقةٍ بعدم القدرة على المواجهة ، وبحتميّة انتصار المرجع الاستلابي ، ويؤدي ذلك في آخر المطاف إلى مَحو الذات الحقيقية ، واستبدالها بذات تكون في الغالب خاضعة ، وتظهر عليها ملامح الخوف والقلق والضعف[7]. والاستسلام للأمر الواقع ، فتبدو عاجزة عن إيجاد الحلول التي يمكن أن تعينها على رفض ما يقع عليها من قهر وظلم ، ودفع الأذى الذي سيلحقها . وهناك صور متعدِّدة تمَّ رصدها ، تجسِّد جوانب مختلفة من استلاب المرأة بفعل العوامل الاجتماعية ، التي سنقف عندها في الصفحات القادمة ، ولعلَّ من أبرزها :

1- استلاب الحياة

وممَّا لا شك فيه هو أنَّ بعض العوامل الاجتماعية الضاغطة ، قد تدفع المرأة إلى مغادرة حالة العيش الطبيعي ، والدخول في أجواء العزلة والحزن واليأس ، فتعيش مرغمة في دائرة الاستلاب ، فتفقد القدرة على الصمود والصبر والمواجهة . ومن أبرز تلك العوامل فقد الأبناء ، الذي يُعد من أكثر الأشياء تأثيراً على الانسان عموماً ، وعلى المرأة بشكلٍ خاصٍ ، نظراً لما تتماز به المرأة من رقة في العواطف ، وحنان كثيف ، وما عُرِف عنها في مجال تعلقها الشديد بأبنائها ، فقد أودع الله سبحانه وتعالى بداخلها حُباً شديداً لهم ، لذلك فإنَّ فقد الابن يولّد حزناً وألماً ، ويحدثُ شرخاً في نفسيةِ المرأة ، يترك آثاراً سلبية على حياتها ، قد يرافقها إلى آخر عمرها ، فتعيش حالة من الاستلاب ، والحزن الطويل . ونجد ذلك في مجموعة "

الهروب إلى آخر الدنيا" في قصة (باميلا الصغيرة) ، إذ صوَّرت حالة الاستلاب التي عاشتها (أم باميلا) ، بعدما قام زوجها (عزت) بدفع ابنتها وحبيبها إلى الانتحار معاً ، بدافع الغيرة ، حينما أحسَّ أنَّ قلبه قد تعلَّقَ بـ (باميلا) ، ((**وابتلعت المقبرة ضيفيها الصغيرين وحَلَّ المساء ساكناً رهيباً إلاّ من صوت نعلي عزت الذي عادَ مكسوراً يحمل فاساً كبيرة ، كان مصمماً على أن يخترق التراب لينتزع باميلا من حضن حبيبها الصغير ، ويضمها إلى صدره كما اعتادَ دائماً ، كان يكره فكرة أنها في حضن رجل غيره ، بعبارة أدق كان يغار عليها حتى من الموت ، صحيح أنها كانت طفلته لزمنٍ طويل ، لكنها منذ عامين وقهر أنفه غدت امرأة أحلامه ... كان يتوق إلى أن يسمعها تقول له حبيبي**))[8]. وقد أثَّر ذلك تأثيراً كبيراً على (عزت) ، الذي لم يستطع استيعاب تداعيات الموقف الشعوري ، وما حلَّ به بعد رحيل (باميلا) ، فتوفي بعد ذلك على الفور ، وهنا تبدأ رحلة الحزن والوجع ، إذ وجدت (أم باميلا) نفسها أمام مأساة كبيرة بعد فقد زوجها وابنتها ، فولَّد ذلك حالة من الاستلاب النفسي ، جعلها عاجزة وغير قادرة على مواجهة ما يجري ، وقد صوَّرت سناء الشعلان حالة الاستلاب الذي بدا على (أم باميلا) ، فقد ((**تمنَّت الزوجة المفجوعة بابنتها وزوجها لو أنَّها أطلقت العنان لقلب ابنتها ، لعلها لو فعلت ذلك لما كانت تقف الآن بين القبور لتودّع أحبتها ... تنهَّدت ؛ لأنَّها تعلم أنَّ لا حيلة للأمنيات حيال الموت**))[9]. فالمرأة المفجوعة لم تكن تملك شيئاً تستطيع به مواجهة الموقف الأليم سوى الأمنيات والتنهّد ، بما يوحي بمدى العجز الذي كان السمة البارزة على ردة فعلها ، إذ خيَّم عليها اليأس ، ولم يكن بمقدورها التغلُّب على تبعات الحالة الشعورية ، التي عاشت لحظاتها المؤلمة ، واستسلمت لارتداداتها النفسية .

إمَّا في رواية (أدركها النسيان) ، فقد كانت زاخرة بصور المرأة المستلبة ، لا سيما تلك التي أعياها المرض ، فتشبَّثت به من أجل الخلاص من ماضيها الجميل تارة ، والمؤلم تارة أخرى الذي يضم بين طيَّاته علاقة حبها مع (الضَّحاك) ، فتبدو بطلة الرواية (بهاء) حائرة تعيش حالة من الصراع بين الماضي والحاضر ، إذ لم

تستطع أن تتخلَّص من قيود الماضي ، فوجدت في (المرض) ما يُنسيها تلك الذكريات الجميلة التي عاشتها مع معشوقها ، فتقول : ((**لا أخشى من مرض السرطان أو من الموت ، ولكنَّني أخشى تماماً من أن يلتهم المرض ذاكرتي ، فلا أعود أتذكّر كائني الأسطوري ، الطائر الذي سمَّيته الضحّاك ذات ليلة حزينة باكية ، وأنا متعلِّقة في صدره في غابر طفولتي ونقائي . على الرغم من ذلك أستطيع أن أزعم أنَّني سعيدة تماماً ؛ لأنَّ هذا المرض عندما يلتهم ذاكرتي سوف يقضي على كل ما فيها من ألم وتوجّع وتمزّق وتهافت ، وأخيراً سوف يدركني مُدرك ، وينقذني منقذ ، إنَّه النَسيان مَنْ سوف يدركني وينقذني من ذاكرتي المشحونة بالألم**))[10].

فهي لا تملك أيَّ سلاح تدافع به عن وجودها سوى النسيان ، وهذا الأمر إنَّما يدل على الاستسلام ، وفقدان القدرة على المواجهة ، فكانت يائسة محبطة تتقاذفها أمواج الألم ، وهي وحيدة في بحر الحياة ، تبحث عن مدركٍ ومنقذٍ ، فلم تجد أحداً يعينها ، ويأخذ بيدها من أجل التغلُّب على أحزانها وحيرتها ، لذلك اختارت النسيان للتغلُّب على مصاعب الحياة ، فتقول : ((**لستُ حزينةً لأنَّني مريضة بالسرطان ، فأنا امرأة تحتاج إلى أن يدركها النسيان ، كي تنسى آلامها وأحزانها . الآن أشعر أنَّ هذا المرض هو أكرمُ مَنْ قابلتُ في حياتي ، فهو وحدهُ مَنْ سيخلعني من التذكر ، ويخلعُ التذكر مني**))[11]. ويبدو أنَّ حالة الاغتراب التي عاشتها (بهاء) قد دفعتها إلى أن تصف المرض بـ(الكرم) ، والشائع عن المرض أنَّهُ لا يتلاءم مع مفهوم الكرم ، نظراً لما يجلبه من آلام وأحزان وأوجاع وأرق ، فآثارهُ السلبية تُلحقُ ضرراً كبيراً بصاحبه . لذلك فإنَّ ما ذُكِر على لسان البطلة لا يخلو من المفارقة والغرابة ، لتجسيد أبعاد التجربة القاسية المُفُعمة بالغربة والانعزال والانكفاء على الذات ، والبحث عن وسائل تعبيرية تكون قادرة على التعبير عن موقفها الشعوري ، فقد رضيت بالمرض على الرغم من قساوتهِ وبطشهِ ، هرباً من منازلة الهموم المتراكمة التي تعصفُ بها ، بعد أن فقدت الأمل ، وانقطع رجاؤها ، وهي ترى أن لا أحدَ يّقُدمِ لها يَد العونِ والمساعدة .

وبما أنَّ الاستلاب يكون في بعض الحالات ((حالة إنبهارية وانسحاقية ، تحت ظروف خارجة عن الإرادة ، كما إنّه انقطاع عن الانتماء إلى الذات والتشيؤ القهري))[12]. فقد ازدادت وتيرته على المرأة ، واتَّسع مداه ، وازداد تأثيره ، إذ لم يقتصر عجزها على نسيان الماضي ، بل استسلمت للموت للخلاص من الوجَع حينما خاطبت (المرض) بنبرة الانكسار والخضوع واليأس ، ((**أيُّها المرض الخبيث الحنون في آنٍ ، ألم أقلْ لكَ أنَّك أدركتني في الوقت المناسب؟ هيا التهمني أكثر كي أنسى بهاء ، وأنسى حلمَها الموصول برجلها الحالي الضحَّاك . الآن سأموت رغبةً في الموت والانتهاء والتلاشي كي أنسى التذكُّر فأنساني**))[13]. وهنا دفع هاجس الاستلاب لدى المرأة إلى الرغبة في قدوم الموتِ ، وتمني الزوالِ والفناءِ ، وهذا الأمر لم يحدث لولا أنَّها استنفدت كل عوامل البقاء والمقاومة ، بعد أن خذلها الآخرون ، وتركوها لوحدها تُصارع الواقع المثقَل بالهموم والأوجاع ، لذلك أعلنت بمليء فمها ، وبكاملِ إرادتها استسلامها التام للمرضِ ، فتقول : ((**الآن أعدكَ بأنَّني لن أقاومكَ أو ألعنكَ أو أهربُ منك ، سوف أستسلم لك تماماً ، لتنهشني كما تشاء ، ما عدتُ أرغب في مواجهتك كما فعلت في السابق عندما طردتك من ثديي ، ومزَّقت رحمي ، وألقيته خارج جسدي ، كي أطردك بعيداً عني . الآن سوف أهبكَ امرأةً أدركها النسيان برغبة كاملة ورضا حقيقي . هيا التهمني لأستريح**))[14]. فهي ما إن تخلَّصت من ذاكرة الوجع ، وتنفَّست عبير النسيان ، حتى وجدت نفسها أمام محنة أخرى ، ألا وهي مقارعة المرض الذي افترسها ، وأخذ يمزِّق عدداً من أجزاء جسدها الواحد تلو الآخر ، وهي تنظر بحسرة وألم ، وليس أمامها إلاَّ القبول بما قُدِّر لها ، فقدَّمت روحَها رغبةً في مغادرة الواقع المؤلم ، والانتقال إلى عالم الآخرة .

2- استلاب الجسد

يكاد يكون العامل الاجتماعي من أكثر الأشياء تأثيراً على واقع المرأة ، فيجعلها تعيش حالة من الضياع والمكابدة في مواقف كثيرة ، فيكون باعثاً وسبباً في وصولها إلى الاستلاب ، والشعور بالانسحاق والتراجع أمام الآخر / الرجل ، الذي يبدو هو

من يحرِّك المنظومة الاجتماعية نحو التضييق على المرأة ، وسلب حقوقها . وقد تجلَّت صور الاستلاب الذي عانت منه المرأة ضمن الإطار الاجتماعي ، في المجموعة القصصية (ناسك الصومعة) ، التي أظهرت الموقف الاستلابي للضحية ، إذ لم تملك من أمرها شيئاً ، لتدفع الظلم المتمثل بسلوك (عمها) الحيواني ، إذ كان غارقاً في بحر نزواته ، فلم يتورَّع عن ممارسة فحوليته مع ابنة أخيه ، ((**لكن جسده العاتي أرادَ أن يبتلع امرأة حقيقة في هذه اللحظة ، لم يجد أمامه إلا ابنة أخيه التي ودَّعت الطفولة للتو ، وانتضت ثديين كسيفين ، وملامح أنوثية قادمة ، تفرَّسها برغبةٍ ، وانقضَّ عليها ، فامتصَّ أنوثتها حتى روي ، ونسى جريمته**))[15]. وهنا تجاوز عمها جميع المحرمات ، ولم يلتفت لصوت العقل والدين والأخلاق ، وأدار وجهه للقيم والمبادئ الإنسانية ، فما يهمه هو إشباع نهمه الجنسي ، وإظهار تفوقه الفحولي ، بغض النظر عمَّن تكون ضحيته ، لذلك فإنَّ ما قام به من عمل لا يمت إلى الإنسانية بصلة ، ويعكس مدى ضعف المرأة ، وعدم قدرتها على مواجهة المد الذكوري الجامح ، الذي ينظر إلى المرأة بوصفها جسداً للمتعة . لذا فإنَّ الألفاظ التي صوَّرت مدى الهيمنة الذكورية (تفرسها ، انقضَّ ، امتصَّ) ، تشير إلى مبدأ القوة الذي ظهر عليه العَمُ ، وتعكس حالة العجز والاستلاب لدى الضحية (ابنة أخيه) ، إذ لم يصدَرَ منها أي فعل يمكن أن يعبِّر عن المجابهة أو الرفض ، فقد ضاع صوتُها ، وانطمست إرادتها ، فسلَّمت زمام أمرها للآخر ، وانقادت له طائعة مستسلمة .

ولم يقتصر استلابها على الممارسة الجنسية مع عمها ، بل أذعنت لحكم المجتمع والأسرة الذي أنهى حياتها ، فقد ((**اجتمعت الأسرة ، واهتزَّت الشوارب الغاضبة ، وأُغلِقَت الأبواب والنوافذ والستائر ، وحُجِبَتَ النساء ، وكانت المحكمة ؛ ولأنَّها الأضعف ، فقد كان الحُكمُ ضدها ، إذ ليس من العقل ان يُضحَّى بالرجل الجائر ، وتترك المرأة الطفلة الضحيةِ؟ فاقتادوها إلى العراء ، حيث قُتلِت بدمٍ باردٍ جزاءً على فعلتها الشائنة**))[16]. فالأجواء التي عاشتها المرأة (الضَحية) بعد استلاب جسدها ، يشير إلى أنَّها كانت الحلقة الأضعف في معركتها مع المجتمع

وعاداتهِ وتقاليدهِ الجائرة . إذ لم تقدِّم الأدلة والحجج ، وتُدلي بشهادتها أمام المحكمة التي أصدرت قرار الموت عليها ، وأخلَت سبيل الفاعل الحقيقي (عمها) . وهنا تجلت صورة من صور استلاب المرأة ، فتمثَّلت ((في العلاقة اللا متكافئة بين المرأة والرجل ، وفي علاقة القهر الذي تفرضه على المرأة العادات والتقاليد والبنيات العائلية والقبلية والطائفية))[17]. وفي هذا النص تجسيد لاستلاب جسد المرأة ، عبر الأَفعال التي صَوَّرت عملية اقتيادها ، وقتلها (اقتادوها ، قتُلِت) ، فقد كانت مسلوبةُ الإرادة ، وعاجزة عن إبداء رأيها ، ولم تستطع إسماع الآخرين صوتها وأوجاعها ، والدفاع عن قضيتها ، وتعريف الآخرين بمظلوميتها .

3- استلاب العقل

في مجموعة (مقامات الاحتراق) ، نجد قصة (حليمة المجنونة) ، التي وقعت ضحية لممارسات اجتماعية وقبلية خاطئة ، إذ حولتها هذه الممارسات إلى امرأة (مجنونة) ، فكشفت عن جنون المجتمع الذي تمادى في غَيّه ، عِبرَ أفعالٍ طائشةٍ تتعدى على حقوق الآخرين ، وتسلبُ فرحتَهم وأمنهمُ في سبيل تحقيق سعادتهم ، وإظهار سرورهم . ومن تلك الأفعال ظاهرة (الرمي في الأعراس) ، بُغية لفت الأنظار إلى آثارها المُدمّرة ، والدعوة إلى رفضها ، والعمل على اقتلاعها من الواقع الاجتماعي ، لينعم الجميع بأمنٍ وسلام ، فـ (حليمة) التي ((**كانت جميلة القرية ، وسيدة النساء بالعقل والخُلق والاتزان ، انتظرت سعد عشرين عاماً بلا كللٍ أو تعب ، طوَّفت على القبور والأضرحة والمشعوذين والأطباء ، تضرَّعت إلى الله طويلاً كي يأتي سعد ، الذي تتكنَّى باسمه منذ دهر ... وجاء سعد بعد غفلة التمني ، وشهوة الانتظار ، ومفاجأة القدر ، وأُبدِل الحزن سعادة**))[18]. لكن (حليمة) التي فرحت كثيراً بقدوم (سعد) للحياة ، لم تكن تتوقع ما ينتظرها من واقع مؤلم لم تختاره بمحض إرادتها ، بل فُرِضَ عليها ، فأحدثَ ذلك انقلاباً حاداً في حياتها ، إذ أُغتيل حلمها ، وضاع أملها ، ومُحيت فرحتها ، فرُميت في خانة الاستلاب ، وتغيَّرت حياتها ، ((**فقد تسلَّلت رصاصة غادرة في حُمَّى عرس ، أطلقها أرعن بلا حذر ، ليكرِّس بصورة وحشية طقوس موروثة للأفراح ، فتحوَّل**

العرس إلى مأتم، واغتالَ فرحة أم سعد...ففرَّت بحزنها إلى الجنون ، وغدت حليمة المجنونة ، التي تربط حذاء سعد الذي تيتَّم سريعاً حول رقبتها ، وتطوف به على العرصات والأحياء ، تبحث عن سعد ، وتتبع بكاءه الذي لا يعرف نهاية))[19].
وهنا جاء الجنون نتيجة حتمية لما تعرَّضت له من عنف وأذى ، قد هدَّ كيانها ، وأصابها في صميم أمومتها ، فشكَّل ذلك انتقالاً سيئاً في حياتها ، إذ أصبحت كائناً مستلباً ، يرزح تحت وطأة الضياع والاغتراب ، يبحث عن الأمل المفقود .

ثانياً / صورة المرأة المستلبة بفعل القمع الصهيوني

لم تقتصر بواعث الاستلاب عند المرأة على الظلم الاجتماعي ، عبر منظومة العادات والتقاليد والأعراف بتوجهاتها الذكورية ، بل تعدَّاه إلى القهر الذي نشأ بفعِل ممارسات الاحتلال الصهيوني ، إذ اتَّبع مختلف وسائل القمع والتعذيب والتشريد بحق أبناء الشعب الفلسطيني ، فألقت بظلالها المؤلمة على المرأة الفلسطينية ، التي كانت حاضرة في المتن السردي عينة البحث . وقد أخذ هذا النوع من الاستلاب صوراً عدَّة ، إلا أنَّ أكثرها شيوعاً هي : (استلاب العقل) ، و(استلاب الحياة) ، (استلاب المكان) .

1- استلاب العقل

لقد تجلَّى استلاب العقل في المجموعة القصصية (مقامات الاحتراق) ، ولا سيما في قصة (الطفل الأعجوبة) ، التي صوَّرت لنا قصة امرأة فلسطينية تعرضت للاضطهاد والظلم على يد جنود الاحتلال الإسرائيلي ، بعدما اجتاحوا قريتها ، وشرَّدوا أهلها ، وقتلوا زوجها ، فعاشت حالة من الحرمان والقلق والتأزم النفسي خوفاً على ابنها ؛ لئلا يقع ضحيةً لهمجية العدوان الإسرائيلي . فقد وصل بها الأمر إلى مرحلة (الجنون) ، والنص الآتي يوضِّح بعض أحداث القصة التي تصَّور حال تلك المرأة ، **((لكنَّه طفلها العزيز الحبيب ، الذي نجت بهِ بعد أن اجتاحَ العدو الصهيوني قريتها ، فشرّد الأهل ، وقتلَ الزوج ، وحالَ دون الأبناء ، فنجت بجلدها وبطفلها الرضيع الأعجوبة ، الذي تعلَّمت أن لا تتركه ولو للحظة في سريره يداعب**

نوماً لذيذاً ، فقط يداهم العدو الصهيوني المكان في أي لحظة ، ويسلبها طفلها الحبيب هو الآخر))[20]. وهنا كانت صورة الخوف والقلق والترقب هي السائدة على المشهد القصصي ، إذ لم يستطع المحتل الصهيوني إطفاء جذوة العواطف المشتعلة في الأم ، التي سخَّرت قواها الشعورية من أجل الحفاظ على ابنها ، بعدما فقدت أهلها وزوجها وأحبتها ، وهي بذلك قد تعرَّضت إلى أنواع شتى من القهر والعنف .

وتتساءل تلك المرأة التي لا حيلة لها للدفاع عن ابنها وطفلها الرضيع سوى (الجنون) فتقول : ((**أليس من حق الأم بل من واجبها أن ترعى طفلها الرضيع؟ ليس في ذلك أي عجب ، إذن لماذا يطاردها أولئك الصغار الحمقى من شارع إلى آخر ، ويصرخون في وجهها قائلين : هذه هي المجنونة التي تحمل مخدَّة ليل نهار!!؟))**[21]. وهنا فإنَّ حالة الخوف والقلق على طفلها قد قادتها إلى (الجنون) ، الذي كان مظهراً من مظاهر اليأس والاستلاب أمام القهر الذي مُورِس ضدها . وبما أنَّها لا تملك سوى التساؤل أمام ما نالها من أذى ، ينطبق عليها مفهوم (الشخصية المستلبة) ، ((التي جُرِّدت من حريتها وفرادتها ، ومُنِعت من هويتها الحقيقية ، ومورس عليها القهر والإكراه والتسلط ... فأصبحت مجبرة على التنازل عن حقها القانوني والأخلاقي بأن تحيا ؛ لأنَّها في لحظة ما استغنت عن عقلها لصالح السلطة ، التي استلبتها عن طريق أنساق ثقافية ، تزيِّف الواقع وتمنع من التفتُّح الحضاري))[22]. لذلك أذعنت للواقع المرير ، وركنت إلى الحزن ، وابتعدت عن نمط حياتها المعتاد ، فعاشت حالة الإحباط ، وتقمَّصت دور الشخصية المستلبة مرغمة ، بعد أن فقدت وسائل الخلاص .

2- استلاب الحياة

تُعد قصة (التوائم الأربعة) شاهداً على حالة الاستلاب ، التي تعرضت لها المرأة الفلسطينية ، بفعِل أعمال القمع التي مارسها المحتلون الصهاينة بحق أبناء الشعب الفلسطيني ، حتى أنَّ براءة الطفولة لم تسلم من أفعالهم الوحشية ، وهو ما تكفلَت به هذه القصة ، فالأم (باسلة) التي رزُقَت بتوائم أربعة كُنَّ مصدر سعادتها

في هذه الحياة ، كان همها إسعاد صغيراتها الأربع ، وتحقيق متطلبات فَرحهنَّ ، فقد ((**اشترت لهنَّ الأثواب التي رفضن خلعَها ، وصَمَّمن على أن يعدن إلى البيت ، وهن مرتديات أثوابهن فرحاً واختيالاً بها أمام أترابهن من بنات الجيران والأقارب ، فاستسلمت الأم من جديد لرغبتهن المسيطرة ، وتركتهن عهدةً عند عاملة البيع في متجر الملابس ، حتى تشتري بعض الخضار من السوقَ المجاور ، وتعود مسرعة اليهن لتصحبهن إلى البيت**))[23]. المقطع الوصفي الذي أشارت اليه القصة يعطي صورةً واضحةً عن علاقة الحُب والألفة التي كانت تجمع الأم ببناتها ، فما يهمها أن تراهن فرحات . إلا أنَّ هذا المشهد المُفرح لم يستمر طويلاً بفعل همَجية العدو الصهيوني الغاصب ، ووحشيته في تعاملهِ مع أبناء الشعب الفلسطيني الأعزل ، إذ تواترت الأحداث ، فانقلبَ الفرح إلى حزن وعويل ، وسُرقت الابتسامة من شفِاه الفتيات ، وتَمَّ وأد أحلامهنَّ الطفولية بسقوط قذيفة صهيونية على سوق الملابس ، ((**إنَّ قذيفة صهيونية انهالت على سوق الملابس على حين غرة ، فأحالته إلى جحيم مُستعرٍ . عادت (باسلة) مشدوهة إلى الأرض المحروقة عن بكرة أبيها ، وهي مَن كانت قبل دقائق سوقاً وبشراً وبضائع ، لم تجد (باسلة) من بناتها سوى مزق ملابس كانت بيضاء ، وخليطاً من لحم آدمي معجون من أجساد بناتها التوائم الأربع**))[24]. فأعداء الحياة لم يَرقْ لهم رؤية أفراح الشعب الفلسطيني ، كانت تزعجهم قهقهات الأطفال ، وتَقضُّ مَضاجعهَم الملابس البيضاء التي كانت ترتديها البنات الأربع ، فالبياض يعني الحياة والأمل والتفاؤل بالمستقبل ، وهذا ما لا يطيق رؤيته الصهاينة ، فازدادَ بغضهم وحقدهم الذي دفعهم إلى أن يستخدموا آلة الحرب المدمّرة للقضاء على الحياة ، التي كانت تتجلى في سوق الملابس . لذلك أحرقوه ، وقطعوا أوصال المتَبضعين فيه ، ومحوا أجسادهم إرضاءً لنوازع الشر التي جُبِلَ عليها الصهاينة .

ويبقى السؤال الأهم في هذا المقام ، هو ما أثر هذا الفعل الإجرامي على الأم الفلسطينية (باسلة) ؟ وكيف كانت ردود أفعالها تجاه ما حصل ؟ إنَّ الاجابة عن ذلك تتَّضح في ختام القصة ، إذ ((**شرعَت تلمّ اللحم المتناثر ، وتحوشه في**

صدرها بعد أن عجزت – لأول مرة في حياتها – عن أن تُميّز بين بناتها التوائم الأربع))[25]. فسوداوية المنظر ، وقتامة المشهد ، قد ألقيا بظلالهما السلبية عليها ، ممَّا أفقدها توازنها ، فبدت مُغلّفة برداء الحزُنِ واليأسِ والذهولِ ، إذ لم تقم بأي فعلٍ سوى جمع شتات اللحم المتناثر، الذي كان قبل لحظات يَعجُّ بالحياة ، ويملأ المكان فرحاً وسروراً ، فخيَّم عليها الحزُنُ والألم ، وظهرت بمظهر المستسلمة اليائسة ، التي لا حيلةَ لها سوى جمع ما تناثَر من أجسادِ بناتها ، بعد أن عجزت عن التمييز بين لحمِ كل جسد منهنَّ .

3- استلاب المكان

نجد صورة أخرى من صور المرأة المستلبة في المادة المدروسة ، تشير إلى استلاب المكان ، وقد وردت في قصة (حليب) ، ضمن المجموعة القصصية (تقاسيم الفلسطيني) ، إذ صوَّرت جانباً من ممارسات الصهاينة بحق الفلسطينيين ، وما شهدته من قمع واضطهاد ، كانت ضحيته المرأة الفلسطينية ، التي عانت من الحرمانِ والقهرِ عبرَ تجريدها من أمومتها ، وسلب طفلها الرضيع (رزق الله) الذي جاءَ إلى الحياة بعد معاناة طويلة ، فخاضت في سبيل إنجابهِ تجربتين مع زوجين ، فبطلة القصة **((لم تتوقع أبداً أن تجود عليها الأقدار بابنها الرضيع "رزق الله" ، بعد أن فقدت الأمل في الإنجاب ، وهجرَها زوجان ، أحدهما ابنُ عمها ؛ بسبب عقمها ، ثم تزوجت من جارها (زهدي) الذي حملت منه بإبنها "رزق الله"))**[26]. وهنا لم تكن عملية الإنجاب ، وتحقيق حلمها برؤية ولدها أمراً يسيراً ، بل تعرَّضت بسببه إلى الظلم ، ووقع عليها الحيفُ ، فبمجرد أنَّها تأخرت بالإنجاب ، طلقها زوجَها الأول ، غير مكترثٍ بآثار فعله على مشاعرها وأحاسيسها ، وبالضررِ الذي يلحقها جرَّاء ذلك .

وممَّا زاد من محِنة المرأة الفلسطينية ، أنَّها قد كُتِب عليها مجابهة العدوان الصهيوني ، الذي أُبتلي به الشعبُ الفلسطيني لعقودٍ طويلةٍ ، فكان ذلك باعثاً من بواعثِ اغترابها وحزنها ، وقد زاد من لوعتها ، إذ أجبرها العدوان على مفارقة طفلها

الرضيع ، ((**في حين تآمرت الظروف عليها ، فحرمتها منه عندما وجدت نفسها أسيرة في معتقل صهيوني في الصحراء ، بعيداً عن طفلها الرضيع ، هدية السماء لها ، الذي تركته أمانة غالية في عهدة زوجة أخيها**))[27]. ويبدو أن ذلك قد آلمها كثيراً ، وضربها في الصميم ، ففجَر لديها ينبوع الحنان والمشاعر ، وزاد من تدفُّقه نحو طفلها الرضيع ، فازدادت لهفتها وحنينها وشوقها إليه بعد أن تَقطَّعت السُبل ، وخضعت لسلطة الفراق والبُعد ، وهو ما تجلّى في المشهد القصصي الآتي : ((**أشدُّ ما يحزنُها أنَّ طفلها رضيع يحتاج إلى دفقِ حليبها ، الذي ينساب هارباً من حلمتي ثدييها ، كلما نطقت باسمه ، أو حشرجت بدموع الاشتياق له ، أو شرقت بلوعةِ فراقه**))[28]. إنَّ تدفق حليبها في ظل غياب طفلها الرضيع ، قد كان دافعاً يدفعها نحو الحزن والألم ، ويثيرُ بداخلها اللوعة والاضطراب ، وعدم الاستقرار والقلق ؛ لأنَّ الحليب هو الرابط المعنوي والمادي بينها وبين طفلها ، وهو مَنْ يهيج لديها الذكريات التي كانت تعيشها معه ، فتزداد أوجاعها ، وهي عاجزة عن فعل أي شيءٍ ممكن أن يخفِفّ من القوةِ الضاغطةِ التي يُمارسها جريان حليبها عليها ، لذلك فإنَّ عجزَها عن تحقيق عملية إرضاع طفلها ، قد قادَها للقيام بممارسات لا تمت إلى الواقع والحقيقة بصلة ، فكانت ((**تُصدّق بالمعجزات ، تُخرج ثدييها من داخل ثوب سجنها الفضفاض القذر ، وتفكّر بابنها الرضيع ، فيندلق الحليب من صدرها في فم ابنها على الرغم من البعاد ، فترضعه حتى يشبع ، وبينهما صحراء وسجن وجنود وكلاب**))[29]. وبذلك فتصديق المعجزات، يعد هروباً من الواقع المؤلم ، وهذا الإجراء يعكس حالة الاستلاب التي عاشتها المرأة الفلسطينية ، بفعل الممارسات الصهيونية الظالمة ، التي لم تراعِ الجوانب الإنسانية في تعاملها مع الشعب الفلسطيني .

الخاتمة :

وختاماً وجدنا لزاماً علينا أن نوجز أهم النتائج التي توصَّل إليها البحث ، وهي :

1- رصد البحث الكثير من حالات الاستلاب التي تعرضت لها المرأة ، وفي مواضع مختلفة من قصص سناء الشعلان ورواياتها ، الذي يبدو أنَّه كان قدرها المؤلم على

مر العصور ، بفعل التوجهات الفحولية التي مارست أنواعاً شتى من القمع والتهميش والإقصاء ، سواء على المستوى الاجتماعي ، أو السياسي . فبدت منكسرة وحائرة ومحبطة ، بفعل الفراق وفقد الأبناء تارة ، ومذعنة وخاضعة لما يُفرَض عليها من أحكام وقرارات تحت غطاء سلطة العائلة ، والقبيلة ، والمجتمع تارة أخرى .

2- أوردت الكاتبة جانباً من صور المأساة والألم التي عاشها الشعب الفلسطيني في ظل الاحتلال الصهيوني ، وبيّنت في مواقف كثيرة ما تعرَّضت له المرأة الفلسطينية من ممارسات قمعية ، على يد جنود الاحتلال ، التي جلبت لها الأحزان والمصائب ، وزادت من معاناتها ، وعمَّقت أوجاعها وآلامها ، فعاشت في ظل الحرمان والبؤس ، حتى أصبح اليأس عنوان حياتها ، بعدما دفعها الاحتلال إلى مفارقة أحبتها وأهلها وأقاربها .

3- إنَّ استلاب عقل المرأة وحياتها وجسدها ، كان من أبرز الصور التي زخرت بها المادة المدروسة ، سواء كان ذلك بفعل القمع الاجتماعي أو الصهيوني . فيما عانت المرأة في بعض المواقف التي مرَّ ذكرها في متن البحث من الاستلاب المكاني ، حينما فُرِض عليها مغادرة مكان استقرارها الذي وُلِدت وترعرعت فيه .

الهوامش /

1- لسان العرب : مادة سَلَبَ .
2- الشخصية المستلبة في الرواية العراقية المعاصرة من 2004 إلى 2008 : 21.
3- الاستلاب (هوبز ، لوك ، روسو ، هيغل ، فويرباخ ، ماركس) : 15 .
4- جماليات النص الأدبي (دراسات في البنية والدلالة) : 99 .
5- ينظر : صورة المرأة في روايات حنان الشيخ : 21 .
6- جرائم الشرف في رواية شرفة العار لإبراهيم نصر الله - قراءة على ضوء النقد النسوي : 19 – 20 .
7- ينظر : الاستلاب وأنماطه في قصص محيي الدين زنكنة : 63 – 64 .
8- الهروب الى آخر الدنيا ، مجموعة قصصية : 21.
9- م.ن : 23.

10- أدركها النسيان ، رواية : 54.

11- م.ن : 55.

12- معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة : 113 .

13- أدركها النسيان : 59.

14- م.ن : 59.

15- ناسك الصومعة ، مجموعة قصصية : 45.

16- م.ن : 46.

17- صورة المرأة في روايات حنان الشيخ : 21 .

18- مقامات الاحتراق ، مجموعة قصصية : 37.

19- م.ن : 38.

20- م.ن : 92.

21- م.ن : 92.

22- الشخصية المستلبة في الرواية العراقية المعاصرة من 2004 إلى 2008 : 21 – 22 .

23- تقاسيم الفلسطيني ، مجموعة قصصية : 14.

24- م.ن : 14-15.

25- م.ن : 15.

26- م.ن : 83.

27- م.ن : 83.

28- م.ن : 83.

29- م.ن : 83.

المصادر والمراجع :

(1) أدركها النسيان ، رواية ، سناء شعلان ، أمواج للطباعة والنشر والتوزيع ، عمان – الأردن ، ط1 ، 2018م .

(2) الاستلاب وأنماطه في قصص محيي الدين زنكنة ، نهى خليل إبراهيم رشيد ، رسالة ماجستير ، جامعة ديالى – كلية التربية للعلوم الإنسانية ، 2014م .

(3) الاستلاب (هوبز ، لوك ، روسو ، هيغل ، فويرباخ ، ماركس) : فالح عبد الجبار ، دار الفارابي ، بيروت – لبنان ، ط1 ، 2018م .

(4) تقاسيم الفلسطيني ، مجموعة قصصية ، د. سناء شعلان ، دائرة المكتبة الوطنية ، المملكة الأردنية الهامشية – عمان ، ط1 ، 2015م .

(5) جرائم الشرف في رواية شرفة العار لإبراهيم نصر الله – قراءة على ضوء النقد النسوي ،شهريار نيازي – فاطمة أعرجي ، بحث منشور ، مجلة الآداب ، ملحق العدد 129 ، حزيران ، 2019م .

(6) جماليات النص الأدبي (دراسات في البنية والدلالة) ، د. مسلم حسب حسين ، دار السياب للطباعة والنشر والتوزيع ، لندن ، ط1 ، 2007م .

(7) الشخصية المستلبة في الرواية العراقية المعاصرة من 2004 إلى 2008 ، رائد جميل عكلو ، رسالة ماجستير ، كلية التربية للعلوم الانسانية ، جامعة ذي قار ، 2016م .

(8) صورة المرأة في روايات حنان الشيخ ، رنا أحمد عبد الفتاح عبد العليم ، رسالة ماجستير ، كلية الدراسات العليا – الجامعة الأردنية ، 2010م .

(9) لسان العرب ، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأنصاري الإفريقي ، صحَّحهُ : أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي ، لبنان – بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، (د.ط) ، (د.ت) .

(10) معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة ، د. سعيد علوش ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت – لبنان ، ط1 ، 1985م .

(11) مقامات الاحتراق ، مجموعة قصصية ، سناء شعلان ، نادي الجسرة الثقافي والاجتماعي ، ط1 ، 2006م .

(12) ناسك الصومعة ، مجموعة قصصية ، سناء شعلان ، نادي الجسرة الثقافي والاجتماعي ، (د.ط) ، 2007م .

(13) الهروب الى آخر الدنيا ، مجموعة قصصية ، سناء شعلان ، نادي الجسرة الثقافي والاجتماعي ، (د.ط) ، 2006م .